تفسير ابن كثير

يقول ا تعالى منكرا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى : { مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل ا فلن تجد له سبيلا } وقال ههنا : { ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب ا عليهم } يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن ثم قال تعالى : { ما هم منكم ولا منهم } أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود ثم قال تعالى : { ويحلفون على الكذب وهم يعلمون } يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذا با منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له با إنهم مؤمنون وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقا ولهذا شهد ا بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : { أعد ا لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون } أي أرصد ا لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم ولهذا قال تعالى : { اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل ا } أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل ا لبعض الناس { فلهم عذاب مهين } أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم ا العظيم في الأيمان الكاذبة الخائنة ثم قال تعالى : { لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من ا شيئا } أي لن يدفع ذلك عنهم بأسا إذا جاءهم { أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } ثم قال تعالى : { يوم يبعثهم ا جميعا } أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدا { فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء } أي يحلفون با D أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند ا كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : { ويحسبون أنهم على شيء } أي حلفهم بذلك لربهم D .

ثم قال تعالى : منكرا عليهم حسبانهم { ألا إنهم هم الكاذبون } فأكد الخبر عنهم بالكذب وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا زهير عن سماك بن حرب حدثني سعيد بن جبير أن ابن عباس حدثه أن النبي صلى ا عليه وسلّم كان في ظل حجرة من حجره وعنده

نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : [إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه] فجاء رجل أزرق فدعاه رسول ا فكلمه فقال : [علام تشتمني أنت وفلان وفلان] نفر دعاهم بأسمائهم قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه قال فأنزل ا D { فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون } .

وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين عن سماك به ورواه ابن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن سماك به نحوه وأخرجه أيضا من حديث سفيان الثوري عن سماك بنحوه إسناد جيد ولم يخرجوه وحال هؤلاء كما أخبر ا تعالى عن المشركين حيث يقول : { ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا وا ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون } ثم قال تعالى : { استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر ا } أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا ا D وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ولهذا قال أبو داود : حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زائدة حدثنا السائب بن حبيش عن معدان بن أبي طلحة اليعمري عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية] قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة ثم قال تعالى : { أولئك حزب الشيطان } يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر ا ثم قال تعالى : { ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون }